عمر بن الخطاب رضي الله عنه

١٣- ٢٣هـ ٦٣٤- ٦٤٤م

ترجمته:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل العدوى من بنى عدى بن كعب يلتقى نسبه مع النبى ﷺ فى كعب بن لؤى.

وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة يلتقى نسبها بالنبى ﷺ فى مرة بن كعب وكان فى صغره يرعى على أبيه غنمه ولما كبر اشتغل بالتجارة ومازال يشتغل بها حتى ولى الخلافة.

ولد رضي الله عنه لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد الرسول ﷺ، ونشأ فى بيت من بيوت السيادة فى قريش وآلت إليه قبل الإسلام السفارة وهى شارة الشرف التى كانت لبنى عدى فى الجاهلية، وكان رحمه الله شجاعًا جريئًا قوى الشكيمة شديدًا فى الحق لا تأخذه فيه لومة لائم، تشهد بذلك سيرته قبل الإسلام وبعده. ولم يكن بدء ظهور الإسلام مقتنعًا بصحته! فحاربه وحاده وصد عنه حتى كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ورأى منهم شدة تمسكهم بدينهم واحتمالهم كل أذى فى سبيله، فرق لهؤلاء المهاجرين الفارين بدينهم منه ومن أمثاله، وفكر فى هذا الدين الذى ملك على أتباعه السمع والبصر وجعلهم يفارقون أوطانهم من أجله ويضحون بديارهم وأموالهم فى سبيله. ثم أراد الله له الخير فآمن وذهب إلى النبى ﷺ فى دار الأرقم بن أبى الأرقم وأعلن إسلامه فأعز الله به الإسلام استجابة لدعوة رسوله ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر ابن الخطاب أو بعمرو بن هشام**» وبإسلامه جهر المسلمون بعبادتهم واستطاعوا أن يدخلوا المسجد الحرام آمنين ولقبه الرسول صلوات الله عليه

من أجل ذلك بالفاروق لأن الله قد فرق بإسلامه بين عهدين: عهد الإسرار بالدعوة وعهد الجهر بها.

وعندما أراد الهجرة إلى المدينة لم يخرج خفية متسللاً كما كان يفعل غيره خيفة أن يحبسهم أهلوهم، ولكنه تقلد سيفه وتنكب قوسه ومضى نحو الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعًا ثم أتى المقام فصلى متمكنًا ثم وقف على حلق قريش واحدة واحدة وهو يقول «شاهت الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس! من أراد أن تثكله أمه فليلقنى وراء هذا الوادى!» فلم يتبعه أحد.

وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها لم يتخلف عن واحدة منها. وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين له ﷺ وكان رضي الله عنه من الملهمين، وكثيرًا ما كان يشير على النبى برأى فينزل القرآن موافقًا لما أشار به. وقد أصهر إليه النبى ﷺ فتزوج ابنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها بأحد.

ولما لحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى كان له الفضل فى الإسراع ببيعة أبى بكر فقضى على الاختلاف وتفرق الكلمة، وكان له بعد بيعته بمنزلة الوزير والساعد الأيمن يستشيره فى عظائم الأمور ويحيل عليه الفصل فى القضايا والخصومات. وإليه يرجع الفضل فى جمع القرآن فى زمن أبى بكر رضي الله عنه.

انتخابه للخلافة:

لما مرض أبو بكر واشتد عليه المرض خاف أن ينتشر عقدهم بتنازعهم على الخلافة وقد رأى ما كان منهم عقب وفاة الرسول ﷺ من انقسام، وأن كل فرقة تريد الأمر لها وأن كثيرين كانوا يرون أنهم أهل للاضطلاع بها فدعاه -حرصه على مصلحة المسلمين واجتماع كلمتهم- أن يتخير لهم رجلاً رضًى منهم يجتمعون عليه ويحفظ عليهم ألفتهم، ولم يشغله ما هو فيه من شدة المرض عن مصلحتهم. ولو ترك الخلافة من غير عهد ولا تعيين لتنافس المتطلعون إليها، ولشغل المسلمون بها وتركوا منازلة أعدائهم من

الفرس والـروم، ولكانت فتنتـهم بها أنكى عليـهم من فتنة الـردة، ولعاود العرب ردتهم جذعـة فيتسع الفتـق على الراتق ولكان تاريخ المسلمين على غير ما هو عليه اليوم.

أجال أبو بكر نظره فيمن حوله يتـخير منهم رجلاً رِضًى منهم، شديدًا فى غير عنف جديرًا بحمل أعباء ذلك المنصب الخطير فى تلك الأيام الحاسمة فى تاريخ الإسلام، فوجد الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ على ما يحب، غير أنه رأى أن عمـر أمثلهم إلى مـا يود للمسلمـين، ولكنـه أحب أن يسـتوثق للأمر فاستشار كبار الصحابة وأهل السابقة ليطمئن على حسن اختياره، وحتى لا يكـون فى نفس واحد منهم حـفيظة على من يختاره. فدعا عـبد الرحمن ابن عوف فقـال: أخبرنى عن عمـر، فقال له: ما تسـألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقـال: وإن! فقال عبـد الرحمن هو أفضل من رأيك فـيه من رجل، ولكن فيه غلظة، فقال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيـرًا مما هو فيه، ويا أبا محمد قد رمقتـه فرأيتنى إذا غضبت على رجـل فى شـىء أرانى الرضا عنه، وإذا لنت له أرانى الشـدة عليه، لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئًا قال نعم.

ثم دعا عثمان بن عفان فقـال: يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر، قال: أنت أخبر به، فقال: على ذلك يا أبا عـبد الله، فقال: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبد الله، لا تذكر مما ذكرت لك شيئًا، قال: أفعل! فقال له أبو بكر: لو تركته ما عدوتك، وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلـى من أموركم شيئًا. ولوددت أنى كنت خلوًا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم. وسـأل أسيد بن حضير فقـال: اللهم أعلمه الخير بعـدك يرضى للرضا ويسخط للسـخط، الذى يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أقوى عليه منه. واستشار سعيد ابن زيد وغيره من المهاجرين والأنصار فكلهم أثنى وقال خيرًا.

ولما استبان لأبى بكر ما أحب دعا عثمان بن عفان فأملى عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبى بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين. أما بعد: ثم أغمى عليه فكتب عثمان: فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيراً. ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ علىّ فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت فى عشيتى. قال: نعم، قال جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرها أبو بكر من هذا الموضع.

ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عيسى ممسكته، فقال لهم: أترضون بمن أستخلف عليكم، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قرابة وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا. وفى رواية فقام على فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر، فقال أبو بكر: فإنه عمر[1].

ثم اختلى بعمر وأوصاه بتقوى الله ومراقبته فى السر والعلن ولما خرج من عنده رفع يديه وقال: اللهم إنى لم أرد إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيًا فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم فإنهم عبادك ونواصيهم فى يدك وأصلح لهم وإليهم واجعله من خلفائك الراشدين يتبع هدى نبى الرحمة وأصلح له رعيته.

وقد بايع المسلمون عمر البيعة العامة فى مسجد النبى ﷺ. وبذلك تكون البيعة لعمر تمت بعهد من أبى بكر وترشيح ورضًا من أهل السابقة وكبار الصحابة ثم من عامة المسلمين[2].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى.

(٢) وهذه البيعة بهذه الصفة تدحض زعم المغرضين الذين يقولون إن البيعة لعمر كانت نتيجة اتفاق ومؤامرات بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة.

ويعتبر اختيار أبى بكر لعمر آخر الأعمال الكبرى التى قام الصديق للإسلام والمسلمين.

وكان بدء خلافته يوم الثلاثاء ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ.

أول خطبة لعمر

بعد أن بويع بالخلافة صعد المنبر فخطب المسلمين خطبة قصيرة ولكنها تنبئ عن سياسته التى اعتزم أن يسوس بها المسلمين، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إنما مثل العرب كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق».

والجمل الأنف (ككتف) أو الآنف (كصاحب) هو الجمل الذلول المواتى، الذى يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلاً. وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده، فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها، بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال: «أما أنا فورب الكعبة لأحملكم على الطريق» ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذى لا اعوجاج فيه[١].

كان أبو بكر رضى الله عنه يدعى خليفة رسول الله. فلما ولى عمر قيل له: خليفة خليفة رسول الله، فقال المسلمون: من جاء بعد عمر قيل له: خليفة خليفة خليفة رسول الله فيطول هذا، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى من بعده من الخلفاء فقال بعضهم: نحن المؤمنون وعمر أميرنا فدعى عمر أمير المؤمنين فهو أول من سمى بذلك وقيل فى تسميته أمير المؤمنين غير ذلك[٢].

---

(١) محاضرات المرحوم الشيخ الخضرى.

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون (٢/ ١٩)، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٤٩، الطبرى (٣/ ٣٧٧) تاريخ الخلفاء السيوطى ص ٩٤.

الفتوح فى عهد عمر

كانت سياسة عمر الخارجية امتدادًا لسياسة أبى بكر فقد سلك نفس الطريق التى اتبعها أبو بكر من قبل، وهى المضى فى حرب الفرس والروم. وقد وفق عمر فى فتوحه توفيقًا عظيمًا، فقد قضى على دولة الأكاسرة وانتزع من قياصرة الروم أنفس الأقاليم التى كانت خاضعة لهم فى آسيا وأفريقية.

الفتوح فى فارس:

كان أبو بكر قد أمر خالد بن الوليد حينما وجهه للشام أن يستخلف على جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى ويترك معه نصف الجنود فرأى المثنى قلة جنده وتوقع أن يجمع له الفرس جموعًا لا قبل له بها فخف إلى المدينة ليطلع أبا بكر على حقيقة الحال، وليستأذنه فى الاستعانة بمن صدقت توبته ممن كان قد ارتد، فوجده فى مرضه الأخير.

ولما علم أبو بكر بما جاء من أجله المثنى، استدعى عمر وأوصاه أن يجد فى إرسال النجدة لجند العراق وقال له فيما قال: «إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا، فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله، وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وجنده، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم «ومات أبو بكر من يومه، فندب عمر الناس مع المثنى وأمّر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة «أبا عبيد بن مسعود الثقفى وأوصاه بقوله: اسمع من أصحاب رسول الله وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكفّ».

النمارق[1]

عجل المثنى إلى عسكره وسار أبو عبيد فى أثره بخمسة آلاف مقاتل سوى من استنفرهم فى طريقه إلى أن وصل الحيرة، وكان الفرس فى ذلك الوقت قد ولوا عليهم آزر ميدخت إحدى إميرات البيت الساسانى فأسندت القيادة العامة للجنود إلى رستم، فكان أول ما قام به أن طلب من أمراء السواد أن يثوروا فى وجه المسلمين، فأجابوا، ظنا منهم أن النصر سيكون للفرس، وجيشوا جيشًا كبيرًا وعسكروا فى «النمارق» فضم المثنى إليه مسالحه وحذره وعندما أقبل أبو عبيد سار إلى النمارق والتحم بالفرس وهزمهم وتعقبهم إلى كسكر[2] حيث أوقع بهم وجاءه دهاقين السواد مذغين.

أزعجت أنباء الهزيمة رستم فجهز جيشًا بقيادة بهمن جاذويه تظله الراية الكبرى لفارس وتسمى (درفش كابيان) وفيه عدد من الفيلة فسار هذا الجيش حتى نزل «قس النّاطف» وسار أبو عبيد حتى نزل المروحة فى مواجهة الفرس على الضفة الغربية للفرات، فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبر إليكم، فأشار عليه ذووا الرأى من المسلمين بعدم العبور، ولكنه لج وقال: لا يكون الفرس أجرأ منا على الموت، وعبر بالمسلمين ودارت رحى الحرب بشدة وكادت كفة المسلمين ترجح لولا أن خيولهم نفرت من الفيلة فترجل أبو عبيد هو وفرسانه فألقاه فيل منها على الأرض ووطئه فاختل أمر المسلمين وركبهم الفرس فتقهقروا، فبادر عبد الله ابن مرثد الثقفى إلى الجسر فقطعه ليثبت المسلمون فى مواقعهم، غير أن ذلك لم يزدهم إلا اضطرابًا فانتهى الناس إلى الجسر والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات وأصيب منهم نحو من أربعة آلاف بين قتيل وغريق، ولولا أن ثبت المثنى فى جماعة من أهل النجدة يحمون ظهور المسلمين حتى عقدوا الجسر وعبروا إلى المروحة لهلك المسلمون عن آخرهم.

---

(١) النمارق موضع قريب من الكوفة من أرض العراق.

(٢) كسكر: كورة واسعة كانت قصبتها خسر وسابور ثم صارت قصبتها واسط بعد أن مصرها الحجاج.

وكان المثنى من آخر من عبر، على رغم ما أصيب به من جراح.

وهذه الموقعة الوحيدة التى انهزم فيها المسلمون أمام الفرس.

وترجع هزيمتهم إلى:

١- استبداد أبى عبيد برأيه، ومخالفته لوصية عمر أن يسمع من أهل الرأى من أصحاب رسول الله ﷺ.

٢- قطع الجسر وهو الطريق الوحيد للنجاة، ولولا هذا الخطأ الحربى لعبر المسلمون، ولما غرق منهم من غرق ولأمكنهم أن يعيدوا تنظيم صفوفهم، وكانت خسارتهم غير فادحة.

البويب[١]

لم يبق مع المثنى بعد موقعة الجسر سوى ثلاثة آلاف رجل، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا الاحتفاظ بما فى أيديهم، ولما علم عمر بذلك بعث إليه بالأمداد، فطلب المثنى أن توافيه هذه الأمداد على البويب ووجه إليهم رستم جيشًا كبيرًا بقيادة مهران، وأرسل هذا القائد إلى المثنى يخيّره بين أن يعبر بجنده أو يعبر هو إليه، فقد كان يريد تجديد مأساة الجسر، ولكن هذه المأساة كان أثرها لا يزال ماثلاً أمام المسلمين، فأبى المثنى العبور واستعد للقتال. وعبأ جيشه تعبئة خالدية وعبر الفرس والتحموا مع المسلمين فى قتال مرير قاتل فيه المثنى قتالا مشهودًا؛ على ما به من جراح. وأمر الجيش بالإفطار فقد كانت هذه الموقعة من أشد ما لاقاه المسلمون هولاً، لتفوق عدوهم فى العدد والعدة، ولكنهم صبروا وصابروا فحقت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جيشهم، فاستبقوا إلى الجسر فسبقهم إليه المثنى وقطعه، وأنزل بهم ما أنزلوه بالمسلمين فى موقعة الجسر السابقة حتى قدر عدد قتلاهم بمائة ألف، وتفرقوا فى الريف مصعدين ومنحدرين وجنود المثنى تتعقبهم إلى أن وصلوا إلى «السيب»[٢].

(١) بلفظ تصغير الباب: نهر بالعراق، الكامل لابن الأثير.

(٢) السيب كورة من سواد الكوفة.

وكانت هذه الموقعة من المواقع الكبرى فقد ألقت الرعب فى نفوس الفرس بعد أن أطمعهم فى المسلمين موقعة الجسر السابقة.

وتبحبح المسلمون بعدها فيما بين دجلة والفرات، لا يمنعهم مانع ولا يقف فى سبيلهم أحد.

ومع أن المسلمين قد انتصروا انتصاراً مؤزراً، فإن المثنى قد أخطأ بقطعه الجسر إذ لا ينبغى إحراج من يقوى على الامتناع. وقد اعترف المثنى بخطئه وحذر جنده من مثل هذا الخطأ.

رحم الله المثنى فقد أبلى فى جهاده بلاء حسنًا واستشهد فى سبيل الله.

القادسية[1]

أفزع الفرس وأزعجهم انتصار العرب عليهم فى «البويب» واتساع نفوذهم فى السواد، ورأوا أن ما هم فيه من اختلاف هو الذى أضعفهم وثبطهم عن عدوهم، فقالوا لرستم والفيرزان -وهما على أهل فارس- أين يذهب بكما؟ لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى، وأن تعرضاها للهلكة، ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت، ثم نهلك وقد اشتفينا منكم[2] فوضعوا حداً لخلافهم واجتمعوا على يزدجرد (وهو آخر ملوك الدولة الساسانية) واطمأنوا إليه.

وتبارى المرازبة فى طاعته ومعونته. وكان شاباً فى سن الحادية والعشرين متحمساً طموحًا، فأجمع أمره على طرد العرب من العراق وردهم على أعقابهم وأعد العدة لذلك، فسعى الجنود لكل مسلحة وثغر وجمع جموعًا هائلة بلغت مائة وعشرين ألف مقاتل عدا الأتباع بقيادة رستم أعظم قوادهم.

---

(١) القادسية موضع على جادة الكوفة يبعد عنها بمقدار ثلاثة فرسخا وهى على باب فارس ولأنها على جادة البادية فهى تضمن للمسلمين ألا يؤتوا من الخلف.

(٢) الطبرى (٢/ ٦٥٨)، ابن الأثير (٢/ ٣٠٨).

كتب المثنى بـأنباء ذلك إلى عمـر بن الخطاب ولم يصل الكتاب إلى عـمر حتى كفر أهل السواد: من كان له عـهد ومن لم يكن له عهد. فتراجع المثنى إلى حدود البادية ونزل بذى قار[1].

ولما وصل كتـاب المثنى إلى عمـر رأى أن يضرب جمـوع الفرس بجـموع العـرب، فأعـلن التعبئـة العامـة ولم يدع رئيسًا ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلا رمـاهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم، وأرسل إلى أبى عبـيدة بن الجـراح يأمره بصـرف جند خالد بن الوليـد إلى العراق، وعزم هو على أن يقود بنفسه جيـوش المسلمين فخرج من المدينة وعسكر على ما ء يدعـى «صرار»[2] وأفلح ذوو الرأى فى أن يصـرفوه عن عزمـه على أن يبعث رجـلا من أصحاب رسول الله ﷺ. فـاستقر على تولـية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص قيادة الجيش.

سار سعـد إلى العراق على رأس جيش بلغت عـدته زهاء ثلاثين ألفًا[3]، بعـد أن انضم إليـه جند المثنى الذى توفى من جـراحة أصـابتـه يوم الجسـر فانتقـضت به، غير أنه لم ينس أن يقـدم النصح للمسلمين فأرسـل مع أخيه المعنى إلى سعد بوصية هى عصارة تجـاربه وخبرته فى حروبه مع الفرس يقول له فيهـا: قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حـجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهـر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونوا أعلـم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم[4].

رابط سعد فى سهل الـقادسية والجيش الفارسى حيـاله فى الجانب الشرقى من الفـرات وبعث -كـمـا أمره عـمـر- رجالا مـن أهل المناظرة والرأى إلى

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط.
(٢) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق.
(٣) كان فى هذا الحيش ٧٠ بدرياً، ٣٠٠ ممن شهد فتح مكة.
(٤) الطبرى (٤/ ٨٩) -ابن الأثير (٢/ ٣١٢).

يزدجـرد فأذن لهم بعـد أن جمع وجوه دولته حوله وقـال لهم: ما جاء بكم وما دعـاكم إلى غزونا والولوع ببـلادنا؟ أمن أجل أنّا تشاغلنا عنكم اجـترأتم علينا؟ فرد عليه بعض رجال الوفد مبينا تاريخ الدعوة الإسلامية وأهدافها وأن دينهم الذى ارتضوه لأنفسهم قد ألقى عليهم مهمة إخراج الناس من الظلمات إلى النور فاخـتر لنفسك: الإسـلام أو الجزية أو السيف، فـاستشـاط يزدجرد غضبًا! وقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكن عندى. ثم قال ائتـونى بوقر من تراب، فـقال احـملوه على أشرف هؤلاء ثم سـوقوه حـتى يخرج من باب المدائن وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم فى القادسية.

ثم ترددت الرسل بين سعد ورستم طمعا فى الصلح، ولكنهم لم يفلحوا، ومع ذلك فقد استفاد المسلمون كثيرًا، إذ اطلعوا على عورات الفرس، وعرفوا مواطن الضعف عندهم.

وكان للحـوار الذى دار بين رستم ورسل المسلمـين صدى بعـيد الأثر بين طبقات الفرس، فقد أشعر العامة منهم بما هم فيه من شقاء ومهانة.

ظل الجيشان متـواقفين مدة طويلة حتى نفد صبـر يزدجرد، فأمر رستم أن يبدأ القـتال، فعبـر الفرات والتحم مع المسلمـين فى قتال مرير وأخـافت فيلة الفرس خـيول المسلمين فـتفرقت عن الرجالة واشـتد الأمر على بجـيلة حين فرت عنها جيادها فـأعانهم سعد ببنى أسد فصمدوا لهـا وكان لهم ولرئيسهم طليـحـة الأسدى فى ذلـك أعظم فخـار فـقـد كانـوا ردءًا للناس ولم يكن للمـسلمين من حـيلة فى الفيلة إلا أن رمت بنو تميم ركـبانهـا بالنبل وقطعت وضنها فسـقطت الصناديق عن ظهورها فلم يبق من ركبـانها راكب إلا قتل. ولما أعريت عن ركبانـها عادت إلى مواقفها فنفس ذلك عـن بنى أسد ما قتل منهم خمسمائة مقاتل واستمر القتال حتى ذهبت هدأة من الليل.

ويعرف هذا اليوم بيوم أرماث[1] وكانت كفة الفرس فيه أظهر .

(١) الرمث بالتحـريك خشب يضم بعضـه إلى بعض ويركب فى البحـر. ورمث أمرهم كفرح اخـتلط فلعلهم شبهوا الصناديق التى على الفيلة بالخشب الذى يضم بعضه إلى بعض ويركب عليه أو لأن أمرهم اختلط.

وفى صبيحة الغد وكَّل سعد بالقتلى من يدفنهم وبالجرحى من يقوم بتمريضهم من النساء. ثم أقبلت جنود خالد من الشام فقوى بهم المسلمون وصدقوا الحملة على الفرس ولم تظهر الفيلة فى ذلك اليوم؛ لأن صناديقها ولم يتم إصلاحها حتى أمسى المساء وقد ابتكر المسلمون أمرًا نالوا به من الفرس، فقد جللوا الإبل وبرقعوها حتى صار لها منظر غريب وطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس منها ما لقيته خيول المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول واستمر القتال إلى منتصف الليل. وكان الظفر أوضح فى صفوف المسلمين، فقد قتلوا من الفرس عشرة آلاف فى مقابل ألفين من المسلمين قتلهم الفرس، ويعرف ذلك اليوم بيوم أغواث[1].

وفى اليوم الثالث اصطدم الجيشان على حنق وعادت الفيلة تفعل فعلها فى خيل المسلمين فصوبوا رماحهم لأكبر فيلين فأصيب أحدهما ورمى الثانى فوثب فى العقيق، فتبعته الفيلة وخرقت صفوف الفرس وعبرت العقيق فى إثره فمال ميزان القتال إلى جانب المسلمين وأقبل الليل والقتال على أشده ولم يكن يسمع فى تلك الليلة إلا صليل السيوف وهدير الفرسان وقاتل الفريقان قتالا لم يقاتلوا مثله قط حتى أصبحوا فسار القعقاع بن عمرو فى الناس يقول لهم: إن الدائرة بعد ساعة فاصبروا واحملوا، فإن النصر مع الصبر. فما قام قائم الظهيرة حتى هزم المسلمون مجنبتى الفرس واشتدت وطأته على القلب وقصد رجال من ذوى النجدة سرادق رستم فأراد الهرب فتبعه هلال بن علفة وقتله ونادى: قتلت رستم ورب الكعبة فكبر المسلمون وتنادوا. ولم يكن لقلب الفرس بعد مقتله ثبات، وتتابعت هزيمتهم.

ويعرف اليوم الثالث بيوم عماس[2] وتعرف ليلته بليلة الهرير (الصوت) ولم يلتحم المسلمون فى قتال أشد هولا منها لا مع الفرس ولا مع غيرهم، وقتل من الفرس نحو من ثلاثين ألفًا، وقتل من المسلمين نحو من ثمانية آلاف.

(١) لمجيء الغوث إليهم بالجند الذين جاءوا من الشام.

(٢) العماس كسحاب الحرب الشديدة.

ومن طريف ما يذكر أن عمر رضى الله عنه كان مشغولاً جداً بأمر القادسية. فكان لا ينفك يخرج فى كل يوم يتنسم أخبارها، فإذا ما انتصف النهار رجع إلى أهله. وفى ذات يوم لقيه البشير فسأله عمر: من أين؟ فأخبره، فاستخبره عمر، فقال وهو يسير على ناقته: هزم الله العدو وهو يجرى وراءه ويستزيده والرجل لا يعرفه حتى دخل المدينة وسلم عليه الناس بإمرة المؤمنين فقال الرجل: فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول له: لا عليك يا أخى هات ما عندك فسلمه كتابًا من سعد بالنصر وبما أفاء الله على المسلمين.

١- وكانت هذه الواقعة من المواقع الفاصلة بين الفرس والمسلمين فقد وجه لها الفرس كل ما استطاعت أمة أن توجهه من جنود وعتاد ووضعت فى جيشها هذا كل آمالها.

٢- ولم تستطع الفرس بعدها مواجهة المسلمين بمثل ما كانوا عليه فيها من عدد وقوة، فقد انهارت روحهم المعنوية وتحطمت قوتهم المادية.

٣- تمكن العرب من استرجاع الحيرة وما والاها من المدن ثم الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس.

٤- اعتناق كثير من عرب العراق وأكارية الإسلام وانخراطهم فى سلك المجاهدين.

٥- امتلاء أيدى العرب بالأسلاب والغنائم العظيمة.

فتح المدائن

أقام سعد بالقادسية شهرين ليستجم الجند ولينتظر أمر الخليفة، ثم ارتحل فاستولى على بابل بلا كبير عناء بعد أن مزق الفلول التى تجمعت من الجيش الفارسى واستقر الأمر للمسلمين فيما بين دجلة والفرات وظل سعد مقيمًا

بالجزيرة حتى جاءه أمر الخليفة بالسير إلى المدائن[1] عاصمة الفرس فسار حتى وصل بهرسير (مدائن الدنيا) فحاصرها ثم فتحها بعد أن تركها الفرس وعبروا إلى المدائن العليا، وفى أثناء حصاره لبهرسير راسلته الدهاقين راضين بأن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فقبل منهم سعد وصالحهم. وشاهد المسلمون وهم فى المدائن الدنيا إيوان كسرى فتذكروا الأثر القائل: عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى، فقويت قلوبهم وارتفعت روحهم المعنوية.

كان الفرس قد قطعوا الجسر بعد أن عبروا الفرات، ليعوقوا زحف المسلمين على عاصمتهم، فدلهم أهل البلاد الحانقين على ملوكهم، على مخاضة فأسرع المسلمون فى العبور ووهن الفرس لذلك ولم يستطيعوا الدفاع عن مدينتهم فتركوها وقد أعجلوا عن نقل ما فيها من كنوز ونفائس. وهرب يزدجرد بعياله إلى حلوان.

نزل سعد بالقصر الأبيض وهو يتلو قوله تعالى: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** (٢٥) **وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** (٢٦) **وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ** (٢٧) **كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨] واتخذه مسجداً بعد أن ظل قرونًا معبدًا لعبادة النار وأقام به أول جمعة فى صفر سنة ١٦هـ وهى أول جمعة جمعت بالعراق.

جمع سعد ما تركه الفرس وما فى خزائن كسرى من أموال وذخائر وكان شيئًا كثيرًا، فأصاب الفارس اثنا عشر ألف درهم -وكان كل الجند فرسانًا- مما غنموه من القادسية. ثم قسم دور المدائن بين الناس فأوطنوها، ثم جمع الخمس وأدخل فيه الكثير من نفائس كسرى وحلّيه مما يعجب العرب أن يروه، ومن ذلك بساط ستون ذراعًا فى مثلها فيه من الصور والمناظر ما يأخذ بالألباب.

(١) المدائن عبارة عن مدينتين متقابلتين إحداهما على الشاطئ الغربى لدجلة وهى المدائن الدنيا أو بهرسير وقد بناها السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدونى وكان يسكنها طبقة من العامة من الفرس والثانية على الشاطئ الشرقى لدجلة وهى المدائن العليا وقد بناها ملوك الفرس وبها إيوان كسرى (القصر الأبيض).

جلولاء

انتهى الفرس فى هزيمتهم إلى جلولاء، كانت -مفترق طرقهم- فتذامروا وقالوا: إن افترقنا لم نجتمع فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم: فإن كان الظفر لنا فذاك ما نحب، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذرًا، فحصنوا المدينة واحتفروا خندقًا حولها أحاطوه بالحسك إلا طرقهم، وكان يزدجرد مقيما فى حلوان ويمدهم بالرجال والأموال، فاستأمر سعد عمر، فأمره أن يسرح إليهم هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألفًا، فسار عتبة حتى نزلا بجلولاء وحاصرها نحوًا من ثمانين يومًا، ولما طال الأمر بالمسلمين هاجموها من ثغرة فى تحصينات الفرس كانوا أعدوها لدخولهم وخروجهم، وصادفوا فى ذلك حربًا هائلة كانوا يشبهونها بليلة الهرير، وكان بطلها القعقاع ابن عمرو. وبعد قتال عنيف ولى الفرس الأدبار هربًا يمنة ويسرة تاركين المدينة للمسلمين وتبع القعقاع المنهزمين حتى وصل خانقين. ولما علم يزدجرد بالهزيمة ترك حلوان إلى الرى فسار القعقاع إلى حلوان واحتلها وأقام مرابطًا بها، وكانت هى الثغر الذى يفصل بين السواد والجبل، وكان من رأى عمر ألا يجاوزها المسلمون إلى ما وراءها، حتى لا يتورطوا فى بلاد لا يعلمون مسالكها، وقبل أن تثبت أقدامهم فى البلاد التى فتحوها، وقال فى كتاب له: «لوددت أنّ بين السواد والجبل سدًّا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، وإنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال».

تكريت

بلغ سعدًا تجمع الفرس بتكريت ومعهم كثير من العرب فأرسل إليهم عبد الله بن المعتم فى خمسة آلاف رجل، فخندق الفرس حول تكريت فحصرهم ابن المعتم أربعين يومًا، وفى أثناء ذلك استمال العرب المنضمين إلى الفرس إلى جانبه واتفق معهم أن يكبروا إذا سمعوا تكبير المسلمين، ثم أمر بالهجوم والتكبير، فهجموا وكبروا، فكبر العرب الذين مع الفرس بتكبيرهم

فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فاستبقوا إلى الأبواب فأخذتهم سيوف المسلمين من بين أيديهم ومن خلفهم.

ثم سار ابن المعتم إلى نينوى ففتحها ثم إلى الموصل، فاستولى عليها، وأرسل سعد فصيلة ثانية بقيادة ضرار بن الخطاب إلى ماسبذان فافتتحها عنوة وآمن أهلها.

كما سارت فصيلة ثالثة بقيادة عمر بن مالك لفتح قرقيسيا ففتحها عنوة وأقر أهلها عليها.

وبذلك صار سواد العراق كله فى أيدى المسلمين.

تمصير البصرة والكوفة

بعد أن فتح الله على المسلمين ما فتح من العراق كانت رسلهم ترد على عمر فيرى فى وجوههم وألوانهم تغيراً، فسألهم عن سر ذلك فقالوا له: وخومة البلاد، فاستنبأ سعداً فأنبأه بأن «العرب خددهم، وكفأ ألوانهم وخومة المدائن ودجلة» فأرسل إليه أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا موضعاً بريّاً بحرياً ليس بينكم وبينى فيه بحزر ولا جسر، فسارا مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا ودعوا الله أن يبارك لهم فى هذه الكوفة، فلما بلغ ذلك عمر، أمر سعداً أن يسير بالجنود إليها، فارتحل بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرم سنة ١٧هـ وأقام المسلمون فى خيامهم، ثم أذن لهم عمر أن يتخذوا بيوتًا من قصب، ولما أصابها الحريق أذن لهم فى اتخاذ بيوت من اللبن، وبدءوا ببناء مسجدها وبنوا بحياله دار الإمارة وجعلت مناهجها الكبرى أربعين ذراعًا.

أما البصرة فإن الفرس كانوا قد استعادوا ثغر الأبلة قبل القادسية. ولما انتصر المسلمون على الفرس فى القادسية أمر عمر سعداً بإرسال فصيلة من الجند إلى الأبلة لتمنع مجيء الفرس من ناحيتها، فأرسل سعد عتبة بن غزوان فاستولى عليها مرة أخرى وعسكر بجنده فى موضع البصرة فى سنة ١٤هـ

واتخذت الأبنية فيها سنة ١٧هـ كما اتخذت فى الكوفة. فمُصرتا معًا، فالبصرة وإن نزلها المسلمون فى سنة ١٤هـ لم يتم تخطيطها إلا فى سنة ١٧هـ، ومن هنا كان الخلاف بين المؤرخين فى الزمن الذى مصرت فيه.

وبتمصير البصرة والكوفة ارتفع شأنهما، وعظم أمرهما، وأصبح لهما شأن عظيم فى قيادة الجيوش، وصارتا منارتين للعلم والأدب فى العالم الإسلامى كله، وحلت الكوفة محل الحيرة، وحلت البصرة محل الأبلة.

فتح الأهواز

كانت الأهواز تحت سلطان الهرمزان، وكان قد تراجع إليها بعد القادسية، وجعل يقاوم العرب بشدة ويغير على ما بأيديهم مصطنعًا الدهاء والغدر، فكتب عتبة بن غزوان أمير البصرة إلى الخليفة يستأذنه فى قتاله، فأذن له وأمر سعدًا أمير الكوفة أن يمده فأمده، فخرجت جنود البصرة والكوفة لقتال الهرمزان والتقت به وهزمته، ثم طلب الصلح فأجابوه على أن يبقى فى أيديهم ما أخذوه عنوة.

ثم حدث خلاف على حدود الأرضين بين رؤساء الجند المرابطين هناك، فنقض الهرمزان الصلح، فحاربه المسلمون وانتصروا عليه، فعاد يطلب الصلح ثانية فأجابوه على ما لم يفتحوه.

فتح رامهرمز

توالت الأنباء بأن يزدجرد يثير أهل فارس ويذمرهم على حرب العرب والثورة عليهم؛ وأن أهل فارس والأهواز تواثقوا على حرب المسلمين، وبلغت أنباء ذلك إلى عمر، فكتب إلى سعد يأمره أن يبعث إلى الأهواز جندًا كثيفًا كما أرسل إلى أبى موسى الأشعرى والى البصرة بأن يبعث كذلك جندًا إلى الأهواز، ووصلت جيوش المسلمين إلى رامهرمز واصطدمت بالهرمزان وهزمته، فلحق بتستر واعتصم بحصونها، فحاصرها المسلمون عدة أشهر. ولما خارت قوى الهرمزان واشتد الأمر عليه نزل على حكم عمر فقبل منه

المسلمون، واستأسر لهم، فأرسلوه إلى الخليفة ليرى رأيه فيه، فأمنه عمر بعد أن أظهر الإسلام، وفرض له العطاء ألفين وأقام فى المدينة كغيره من عامة الناس، إلا أنه كان محور الاتصال بين أسرى الفرس ونفسه منطوية على الشر للمسلمين ولعمر مما أدى إلى مقتله كما سيتبين فيما بعد.

فتح نهاوند

كان من رأى عمر الاكتفاء بالعراق وعدم الانسياح فى بلاد الفرس. ولما انهزم الهرمزان وتستر وسيق إلى عمر مع الوفد الذى أرسله أبو سبرة بن رهم قائد المسلمين فى تستر، أبان الأحنف بن قيس المتكلم عن الوفد لعمر أن الانسياح واجب، لأن الفرس لا يزالون يساجلون المسلمين مادام ملكهم بين أظهرهم. ولا يزال هذا دأبهم حتى يزيله المسلمون من فارس، فاقتنع عمر بوجاهة هذا الرأى.

ولقد كان انتصار المسلمين على الهرمزان مثيراً لحمية يزدجرد، فجمع من ولايات الفرس الباقية على طاعته جيشًا كبيراً لاستعادة ملكه، وبلغت أنباء تلك الحشود عمر، فولى النعمان بن مقرن حرب هذه الحشود التى اجتمعت بنهاوند، ووضع تحت قيادته من جنود البصرة والكوفة نحواً من ثلاثين ألف مقاتل، فلما وصلوا إلى نهاوند رأوا جموعًا عظيمة فى حصون قوية. فلما أطال الأمر عليهم تبادل الرأى مع أهل النجدة وذوى الرأى فى الحرب وعملوا برأى طليحة الأسدى من الإحداق بالفرس وتحميسهم للقتال حتى إذا ما اختطلوا بالمسلمين استطردوا لهم، ليطمعهم ذلك فى هزيمة المسلمين فيخرجوا إليهم فيجادوهم ويجادهم المسلمون، فيقضى الله قضاءه، وتم ذلك الترتيب الحربى (التكتيك) فأنشب القعقاع القتال فأنغضهم ثم تقهقر فظنها الفرس هزيمة فاغتنموها فخرجوا. فأمر النعمان بالهجوم وصافحهم المسلمون بالسيوف والتحموا معهم فى قتال مرير أريق فيه الغزير من دماء الفرس، حتى زلقت بسببه فرس النعمان فسقط عنها فمات فأخفوا موته!

وحمل الراية من بعده خليفته حذيفة بن اليمان ولم ينته النهار حتى حقت الهزيمة على الفرس.

ويسمى فتح نهاوند بفتح الفتوح؛ إذ لم يكن بعده شديد حرب بين الفرس والمسلمين، فكانت هذه الواقعة فاصلة فى أمر الفرس واستتبعت استيلاء المسلمين على همذان والرى، كما استتبعت فرار يزدجرد إلى خراسان حيث ظل يعمل على استرجاع ملكه إلى أن توفى فى خلافة عثمان رضي الله عنه.

وبعد أن انتهت هذه الموقعة، عمل عمر بمشورة الأحنف فأذن بالانسياح فى بلاد الفرس فكان الاستيلاء عليها ميسوراً بفرار يزدجرد إلى أقصى الحدود الشرقية، وكان هو الباعث للفرس على المقاومة وبذلك امتد نفوذ المسلمين إلى السند، وحققوا من الفتوح فى بضع سنين ما لا يزال يدهش العالم إلى اليوم.

هكذا أخضع الفرس لسلطان العرب السياسى، وسرعان ما اعتنقوا الإسلام وتعلموا العربية واندمجوا فى المجتمع العربى وعرفوا باسم «الموالى» وكان لهم شأن من الشأن فى الحياة العامة السياسية والأدبية.

●●●